

## جينالوجيا مفهوم اندماج المهاجرين: قراءة نقدية في الإرث المفاهيمي الفرنسي وأفق تحقيق الاندماج الفعلي

هشام لعبودي

باحث في سلك الدكتوراه، مختبر "المجتمع المغربي: الديناميات والقيم"، كلية الآداب والعلوم  
الإنسانية، جامعة شعيب الدكالي - الجديدة - المغرب

**ملخص:** هذا النص عبارة عن قراءة تحليلية لمقال «ما الاندماج؟» لعبد المالك الصياد، يُقدّم  
تشخيصاً جينالوجياً للإرث المفاهيمي الفرنسي حول اندماج المهاجرين، قبل أن يرصد،  
سوسيولوجياً، بعض السبل الكفيلة بتحقيق هذا الاندماج، بشكل فعلي، في السياق الفرنسي.

**الكلمات المفتاحية:** اندماج المهاجرين، تماثل، هوية، غيرية، تسييس، تخليق.

### **Genealogy of the immigrant integration concept: A critical reading of the French conceptual heritage and the horizon of effective integration**

**Hicham Laaboudi**

**PhD student, Laboratory "Moroccan Society: Dynamics and  
Values", Faculty of Letters and Human Sciences, Chouaib Doukkali  
University- El Jadida, Morocco**

**Abstract:** This text is an analytical reading of Abdelmalek Sayad's article  
"What is integration?", which presents a genealogical diagnosis of the  
French conceptual heritage concerning the integration of immigrants,  
before examining, from a sociological point of view, some ways in which  
this integration could be, effectively, achieved in the French context.

**Keywords:** Immigrant integration, assimilation, identity, otherness,  
politicization, moralization.

## مقدمة

يعتبر هامش من الباحثين السوسولوجيين أن النموذج الفرنسي في إدماج المهاجرين لم يأت نتيجة مسار صرف من البحث السوسولوجي، بقدر ما هو تحصيل حاصل لمنطلقات إيديولوجية، «فرغم كون فرنسا تعد بلد هجرة بامتياز، إلا أنها تعرف قصورا مفاهيميا مذهلا في تناول هذا الموضوع، ربما لأن هناك خوف من الاعتراف بدور الهجرة الوافدة في تشكيل الثقافة الفرنسية» (Gaillard, 1997, p. 119).

في هذا السياق، وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية، مثلا، «تعتبر أن تواجد الأقليات الوافدة يشكل جزءا من هويتها الوطنية» (Beaud et Noiriel, 1990, p 47)، فإن «مشكلة الهجرة في فرنسا تُطرح كموضوع سياسي يهدد وحدة الأمة الفرنسية» (Ibid, p. 45)، وعلى هذا الأساس اعتمدت فرنسا نموذجا جاكوبيا (Jacobin) في إدماج المهاجرين، يروم الحفاظ على وحدتها الثقافية والاجتماعية والسياسية، انطلاقا من روح ومنطق دولة الرعاية الاجتماعية، عكس النموذج الأمريكي، مثلا، الذي قام على الاعتراف الرسمي بالثقافات الفرعية المتواجدة في البلد.

استنادا إلى ذلك، يسجل الباحثون أنه تم تبني مفهوم (مُوجَّه) للاندماج رغم كونه كان موضع تجاذب مع مفاهيم أخرى من قبيل "التماثل"، حيث فُرض من خلاله نموذج (ذو خلفية إثنو-إيديولوجية)، بالرغم من الانتقادات التي وجهت إليه (Lochak, 2006)، الأمر الذي جعل موضوع «اندماج المهاجرين في السياق الفرنسي يُعدّ (باستمرار) عنصرا مركزيا في الخطاب السياسي، وفي التنافس بين القيادات السياسية الجديدة» (Mendjelli, 1993, p. 9).

على هذا الأساس، سيكون، إذن، من المهم إعادة الحفر في الدلالات المتنوعة التي اصطبغ بها هذا المفهوم في السياق المذكور، خصوصا من خلال ما أنتجه باحثون غير فرنسيي الأصل، أما إذا كان لهؤلاء الباحثين، بالإضافة إلى ذلك، تجربة هجرية على الأراضي الفرنسية، فإن تفحص ما أنتجوه حول هذا الموضوع سيكتسي أهمية استثنائية، على اعتبار أن أعمالهم من المفترض أن تتقاطع فيها العناصر الموضوعية والأكاديمية والإنسانية المطلوبة، لتجويد الخطاب حول موضوع غالبا ما يُحمَلُ بشحنات إثنو-إيديولوجية وسياسية كبيرة، خصوصا من طرف الجهات المُهيمنة في الوضعيات الهجرية؛ ولعل إعادة تفكيك وتركيب مقال «ما الاندماج؟» لعبد المالك الصياد

"Abdelmalik Sayad" (1994) قد يفى بهذا الغرض، على اعتبار أن المقال وصاحبه تتوفر فيهما كل هذه العناصر المذكورة.

على نحو عام، يتبين من خلال تحليل هذا المقال أن مفهوم الاندماج (Intégration) يتميز، مثله مثل مفهوم الثقافة الذي يرتبط بها جزئياً، بتعدد دلالاته، على اعتبار أن المعنى الذي يكتسبه في سياق جديد لا يلغي المعاني القديمة، مما يُنتج نوعاً من الرواسب الدلالية التي تحتفظ بجزء من المعاني السابقة، فالاندماج كما يتم الحديث عنه، حالياً، ورث معاني من مفاهيم محاكاة له، كالتكيف (Adaptation) والتمائل (Assimilation) والإدراج (Insertion) (Sayad, 1994).

إن التسميات المختلفة لنفس السيرورة في سياقات اجتماعية وذهنية متباينة، تجعل الأمر يبدو وكأن كل عصر كان في حاجة إلى أن يزود نفسه بتصنيفه الخاص للأشياء، مما يجعل القواسم المشتركة بين هذه التصنيفات تُستنفذ بسرعة، وتصبح غير جذابة ومشحونة بمعاني مشوشة ذات صبغة مغرقة في المحلية وفي الارتباط بسياق سوسيو-سياسي خاص، فتصبح هذه التصنيفات، بذلك، متجاوزة وفاقدة لمفعولها الاجتماعي والسياسي بشكل مبكر وسريع (Ibid)، وفي المحصلة يصبح مفهوم الاندماج مفهوماً غير أصيل يحتاج إلى كثير من التدقيق، بغية نزع كل حملاته الإثنو-إيديولوجية والسياسية التي اكتسبها على امتداد الفترات المتلاحقة.

في ظل هذه الإشكالية، ومن أجل تحقيق تشريح سوسولوجي دقيق لمفهوم الاندماج في السياق الفرنسي، يبدو أن عبد المالك الصياد اتجه في بناء مقاله المذكور إلى اعتماد منهجية جينبالوجية نقدية لم يبتغ من خلالها، فقط، الوقوف عند أصول ومرتكزات الخطابات المتداولة حول موضوع اندماج المهاجرين الوافدين (Immigrés) في فرنسا، بل تعدى ذلك إلى خلخلة هذه الأصول والمرتكزات؛ ومن تمّ، فالأسئلة الجينبالوجية التي طرحها الصياد في هذا المقال، ليست أسئلة ماهوية تتساءل عن ماهية الاندماج، بل هي أسئلة تنظر في سؤال التشكل، أي كيف تشكلت الأفكار والأحكام حول هذا الموضوع، وذلك تناغماً مع ما ذهب إليه "فريدريك ننتشه"، مؤسس هذه المقاربة المنهجية، حينما قال: «إن ما يهمنا هو معرفة الكيفية التي تُسمى بها الأشياء، لا معرفة ماهيتها» (بنعبد العالي، 2014، ص 31).

إن المنهجية الجينيالوجية النقدية التي اختارها "الصيد" في صياغة مقاله، لا تتفصل عن البيئة السوسولوجية التي أنتج فيها مساهماته العلمية، والتي تُعزى إلى اختباره الشخصي لتجربة الهجرة الوافدة، وقربه الأكاديمي والإنساني من رائد السوسولوجية النقدية الفرنسية "بيير بورديو"، كما أنها لا تتفصل، أيضا، عن التوجه الفكري القوي الذي تولد ابتداء من ستينيات القرن الماضي، خاصة في المدرسة الفرنسية، والذي اعتبر أن النشاط الفكري الحقيقي الذي ينبغي أن يُمارس في عصرنا، والجدير بحمل هذه التسمية، هو ذلك الذي يستخدم المنهج الجينيالوجي في دلالاته الجديدة المستلهمة من الكتابات "النيتشوية"، حيث أن فهم أفكار ونصوص معينة لم يعد يتطلب، كما كان الأمر من قبل، طرح تساؤلات عن المقاصد والمعاني والمضامين لمحاولة استيعابها والإحاطة بها، بل أصبح يقتضي، بالأحرى، التساؤل عما يكمن وراء إنتاجها من دوافع وملابسات وظروف خاصة، أي يقتضي «التساؤل عن شروط خارجية لنشأة وظهور الأفكار والنصوص ذاتها، سواء نُظر إلى تلك الشروط الخارجية على أنها بنية اجتماعية أو اقتصادية أو تاريخية أو إيديولوجية، أو على أنها تجليات للشعور النفسي تعبر عن دوافع غريزية؛ وفي عبارة وجيزة، يمكن القول إن هنالك نوعا من الاتفاق الضمني بين مجموعة من التيارات الفكرية المعاصرة، على أن قراءة النصوص ودراستها ينبغي أن يتم باعتبارها تمثل أعراضا يتعين فك رموزها وتأويلها» (Ferry et Renaut, 1985, p. 43).

## 1. جينيالوجيا مفهوم الاندماج

يُتسم مفهوم الاندماج بتنوع دلالاته وبطابعه التراكمي، حيث أن المعنى الذي يكتسبه في سياق جديد لا يلغي المعاني القديمة، فالاندماج" كما يتم الحديث عنه حاليا ورث معاني من مفاهيم محايطة له "كالنكيف" و"التمائل" و"الإدراج" و"التناقص".

إن كل مفهوم من هذه المفاهيم يبدو فريدا وغير مسبوق، غير أن جميعها عبارة عن تعبيرات مختلفة استُعملت، اجتماعيا، في أزمنة وسياقات متباينة، للتعبير عن نفس السيرورة الاجتماعية، فهذه الأخيرة تستوجب شروطا خاصة لتحقيقها، وهي نتاج مجموعة من الظروف التاريخية الدقيقة المرتبطة بالسياق الذي تتمظهر فيه، والتي ينبغي العودة إليها لفهم مصدر نشأتها (أي السيرورة) والأشكال التي يمكن أن تشملها على نحو دقيق وواضح (Sayad, 1994).

## 1.1. الاندماج مفهوم غير أصيل

### 1.1.1. التكيف (Adaptation) مرادف للاندماج: نتاج للحياة الحضرية

تم اعتماد مفهوم "التكيف" كمرادف للاندماج حينما كان الأمر «لا يتعلق إلا بالتكيف مع العمل الصناعي والآلة، ومواقيت العمل، ومع وثيرة الإنتاج، أو مع الشروط العامة التي يجد فيها العامل نفسه، وبشكل أشمل التكيف مع الحياة الحضرية؛ غير أن هذا المصطلح تقادم بشكل برزت معه مكامن جموده، وما يحمله من معنى مضاد ناجم عن عمق إثنو-مركزوي خالص» (Ibid, p 10)، وعن إلغاء لخصوصية الكائن البشري باعتباره كائنا قادرا على الفعل ورد الفعل.

### 2.1.1. التماثل (Assimilation) مرادف للاندماج: دلالة إثنو-إيديولوجية في سياق الفترة

#### الاستعمارية والهجرة الوافدة

امتدادا لما سبق، اعتبر الصياد (1994) أن صناع التاريخ لم يعملوا، حتى بعد انصرام العهد الاستعماري، على إعادة النظر في هذه المصطلحات، ليأتي الدور على استعمال مصطلح التماثل، الذي حل محل مصطلح التكيف، دون أدنى قدر من التشكيك فيه، على اعتبار أن استحضار تاريخ الاستعمال الاجتماعي لهذا المصطلح، وخصوصا أهدافه الإثنو-إيديولوجية إبان الحقبة الاستعمارية، يكتسي أهمية بالغة من أجل التدقيق في الهالة الدلالية التي تحيط بهذا المفهوم، المتسم بطبيعة هوياتية متمركزة حول الذات الوطنية، حيث تم تقديمه كمرادف لعملية هضم واقتراس للأفراد والجماعات والإثنيات والثقافات واللغات والأمم المغايرة لطرف ما. من هذا المنطلق، ذهب "الصياد" إلى أن مصطلح التماثل استمر في تمرير نفس حمولة وآثار الماضي السلبية رغم الانتقادات التي وجهت إليه، أو التي كان من الممكن أن توجه إليه خلال الفترة الاستعمارية، حيث أنه حافظ على ذاكرة هذه الفترة بكل ما كان لها من ولاء للسياق السياسي والإيديولوجي الاستعماري، والتي استمرت تخيم على الدلالات التي يكتنزها في الفترة اللاحقة، وحتى في الوقت الراهن، على نحو تبدو وكأنها تتشكل بشكل موضوعي ومستقل، بعيدا عن إرادة هذا الطرف أو ذلك (Sayad, 1994).

يتبين هذا الأمر بشكل واضح، من خلال المقارنة بين دلالات هذا المفهوم في السياق الاستعماري ودلالاته في السياق الحاضر، المرتبط بوضعية الهجرة الوافدة، حيث أن استعماله،

في السياقين معا، تم وفق نفس الدلالة: تماثل المستعمرين مع المستعمر الذي فرض هويته الوطنية على السكان الأصليين في عقر دارهم وعلى أرضهم، ثم تماثل المهاجرين الوافدين مع المجتمع المستقبل لهم في الوقت الحاضر، لكن مع فارق أن هذا التماثل أصبح يتم على تراب المستقبلين (المستعمر في الزمن الماضي)، كما أنه لم يعد من الوارد إطلاقا تصور حدوث مقاومة من طرف المهاجرين الوافدين (المستعمرين سابقا) لعملية استئصال هويتهم الأصلية كما وقع خلال الفترة الاستعمارية، حيث كان تُشكّل حركة قومية وطنية من طرف السكان الأصليين، آنذاك، المخرج الوحيد الممكن لمجابهة التناقضات التي خلفتها محاولة إخضاعهم للتماثل الهوياتي مع المستعمر؛ وفي النهاية، يكون التهميش هو مآل من يرفض الخضوع لهذا التماثل الهوياتي مع المجتمع المستقبل، خصوصا في بعده السياسي، دون أن يكون القبول به ضامنا لتجنب هذا التهميش (Ibid, p. 10).

إن سوء سمعة مصطلح الاندماج، باعتباره مرادفا لمفهوم التماثل، تعود أساسا إلى سيرة استعماله في الماضي الاستعماري الفرنسي المنصرم، ويبدو أن رد الفعل اتجاه هذه السمعة (سواء كانت حقيقية أم لا) كان غامضا جدا، فأحيانا تتم السخرية من هذا المفهوم عندما تتم معالجة سيرته الماضية وآثاره المنسية، خصوصا في الوضعية الاستعمارية، وأحيانا أخرى يتم الاحتفاء به وبآثاره في الوضعية الراهنة المتعلقة بالمهاجرين الوافدين، حيث يتم اعتباره فضيلة مدنية فرنسية خالصة، ويتم تقديمه كضمانة ضد التمييز العنصري، كما يتم الثناء، من خلاله، على العقد الاجتماعي والسياسي القائم في فرنسا، والذي يسمح، على النقيض من ألمانيا، مثلا، لكل فرد أن يصبح فرنسيا من وجهة نظر قانونية (Sayad, 1994).

على هذا الأساس، وحيث أن مصطلح التماثل ظل حاملا لإرث الماضي الاستعماري، فإنه ظل بذلك حاملا لمنطوق سلبي يعكس بشكل واضح وجهة نظر إثنو- مركزية، التي ليست سوى وجهة نظر الطرف المهيمن، والتي من خلالها يتم تحديد ما يتم إنتاجه وما ينبغي إنتاجه، والحكم على ما يُنتج لدى الآخرين (القابلين للتماثل والمتماثلين والقابلين للتكيف والمتكيفين) على أنه مناسب أم لا (Ibid).

إن وجهة النظر هذه التي يبدوها ملاحظ خارجي، وملاحظ واثق من نفسه ومن نظرتة إلى العالم، تعتبر أن أولئك الذين يلاحظ مدى تماثلهم أو تكيفهم من عدمه يقومون بدور سلبي في هذا السياق، فهذا المصطلح يشهد أن المجتمع الفرنسي لا يطلب من أولئك الذين يُخضعهم لعملية التماثل معه، سوى أن يتركوا أنفسهم عرضة لهذه العملية وأن يقبلوها دون معارضة، فلا يُسمع أن الفرنسي يمكن أن يكون، أيضا، موضوعا للمماثلة في نفس الوقت الذي يعمل على مماثلة الآخرين معه، في حين أنه حتى يستطيع مماثلتهم معه فلا بد له أيضا أن يتماثل معهم، والحال أنه لا يتم تذكر هؤلاء الآخرين إلا من أجل محاكمتهم على سوء تماثلهم مع المجتمع الفرنسي، حيث أن أخطاءهم يتحملون عبأها وحدهم، في حين أن تماثلهم الجيد يتم إرجاع فضله إلى هذا المجتمع (Ibid, p. 11).

### 3.1.1. الإدراج (Insertion) مرادف للاندماج: وهم عملية تقنية

بعدما استنفذ مصطلح التماثل صلاحيته، كان من اللازم أن يتم تعويضه بمصطلح آخر جديد قابل أن يقدم نفس الخدمات وبمردودية اجتماعية أكبر، «ففي لحظة ما، تمّ الاعتقاد أن هذا المصطلح سيكون هو مصطلح الإدراج، حيث تم استدعاؤه بهدف تحقيق انتشار أكبر؛ ولأنه لم يتميز، من قبل، باستعمال من نوع خاص، فقد بدا محايدا وخال من أي حمولة إيديولوجية أو إثنو-إيديولوجية، خصوصا وأنه يبدو لا ينظر إلى ساكنة خاصة بعين تفضيلية على أساس تاريخها أو أصولها» (Ibid).

من الراجح، إذن، أن الإدراج لا يتعلق سوى بالرابط الاجتماعي وبطبيعة العلاقة مع مجموع المكونات المجتمعية، وبموقع كل مكون منها في المنظومة الاجتماعية، «فالأمر يرتبط هنا بمعاودة إعطاء كل فرد، ما أمكن ذلك، موقعه الكامل والمنسجم مع ما يناسبه في قلب المنظومة الاجتماعية، مع كل ما يحمله ذلك من إيهام بأن الأمر يتعلق كليا بعملية تقنية، حيث أن هذه التقنية (Technicisation) يتم تقديمها كنفويض للتسييس (Politisisation)، على اعتبار أن إخضاع مشكل اجتماعي ما للتقنة يعني في الآن نفسه نزع كل حمولته السياسية» (Ibid, pp. 11-12)، غير أنه، في الواقع، بقي منطويا على نزعة تمييزية طبقية، تحتفظ بكامل شحناتها السياسية.

على هذا النحو، يبدو أن مصطلح إدراج، الذي تغطي حمولته الاجتماعية والسياسية على نظيرتها الإثنية، يتميز بامتداد أوسع وبكونه أقل محلية مقارنة مع مصطلح التكيف وخصوصا مع مصطلح التماثل، حيث يبدو وكأنه «يمثل سيرورة لا تتمحور إلا حول جسد غريب، بشرط أن يكون هذا الجسد قابلا للتحويل (الاستقلاب (Métabolisme)) داخل المجتمع الذي يحتضنه، وأن يتجاوب مع هذا المجتمع كنتاج لهذا التحويل (أي كمستقلب (Métabolite))، وهذا هو ما يُطلب ويُنتظر منه أساسا؛ وهنا، يبدو أن ضعف هذا المصطلح البديل كان يقف خلف عدم تحقيقه لنجاح كبير، بسبب ميله إلى إقامة عمليات توليفية كثيرة واستيعاب جميع الوضعيات، إلى الدرجة التي تنتهي معها سيرورة الإدراج الاجتماعي والاقتصادي والثقافي إلى عدم تحديد أي حالة بدقة» (Ibid, p. 12).

## 2.1. خطاب الاندماج ساحة من ساحات الصراع المجتمعي

### 1.2.1. خطاب الاندماج ساحة من ساحات الصراع الهوياتي

ليس من المؤكد أن الاندماج يشكل سيرورة يمكن توجيهها أو التحكم فيها، «فليس حريا تصور أنه يتميز بالانسجام التلقائي وأنه في منأى عن أي صراع، (...) حيث أن مثل هذه التمثلات تتم عن نوع من الوهم الذي يحرص جميع الشركاء المنخرطين فيه على استدامته والحفاظ عليه، على أساس أن كل طرف من الأطراف المشاركة فيه يتطلع إلى تحقيق مصالحه الخاصة، ويجد من أجل التعبير عن ذلك الكلمات المناسبة في القاموسين السياسي والاجتماعي، ففي المخيال الاجتماعي يعبر الاندماج عن تلك السيرورة التي تصنع الهوية، وفي نفس الآن تطرد أو تختزل الغيرية (باعتبارها نقيضا للهوية)، وينتهي بأن تأخذ معنى جمعيا يحيل على الاتفاق والتطابق والإجماع والتماثل، أو على الأقل على التشابه» (1994, p. 8).

في ضوء ذلك، وأخذا بعين الاعتبار التأثير الواسع للخطاب السياسي على الاندماج، اعتبر "الصيد" أن هذا الخطاب يريد أن يتم التفكير في هذا الموضوع، كما يتم تقديمه وليس كفعل حقيقي على أرض الواقع، مما يجعل قول الحقيقة يتطلب فك الارتباط بجميع الأساطير التي تطوق هذا المفهوم، بما فيها العلمية منها، وذلك حتى يتم تلمس حدة الرهانات الاجتماعية والسياسية، وخصوصا الرهانات الهوياتية، التي يخفيها.



إن الخطاب حول الاندماج هو بالضرورة خطاب «بتمحور حول الهوية: هوية الذات وهوية الغير، وحول علاقة القوى غير المتكافئة التي تتخرب فيها هذه الهويات من أجل المرور من الغيرية الأكثر تجذرا إلى الهوية الأكثر شمولا، فهو ليس خطابا واقعيا بل يريد أن ينتج أثرا في الواقع، وهو يتأسس على العقيدة وأحكام القيمة التي يتم تحويلها صوب دائرة العلم، حيث أن تماسكه يقوم على أساس المزج بين مبدئين متعارضين: أولهما، معلن ويكتسي صبغة علمية، يتجلى، رسميا، من خلال تنوع العلامات الخارجية الدالة على علميته، كعدد الدراسات التي تم إنتاجها أو قيد الإنتاج حول موضوع الاندماج، وكذلك من خلال إنتاج حجج ذات طابع شبه تقني أو بيروقراطي، وثانيهما، غير معلن عنه وذو طبيعة أسطورية، يقدم إجابات شمولية (Totalitaires) وأحادية» (Ibid, pp 8-9)، غالبا ما تُخفي خلفها رهانات إثنو- هوياتية عميقة.

### 2.2.1. خطاب الاندماج ساحة من ساحات الصراع الطبقي

على هذا الأساس، يبدو أن «الحكم على الاندماج انطلاقا من النتيجة المثالية التي تُرسم له، يمنع من تلمس واقعه الحقيقي وما يواكبه من مقاومة وصراع حول المنافع المادية والرمزية، ومن إرباكٍ ومساءلةٍ لمنظومة التراتبية الطبقيّة، فالدلالة الاجتماعية والسياسية المثالية التي تقتزن بالاندماج، لا تسعى فقط إلى تعظيم التاريخ الماضي لهذه العملية، وبالتناغم مع ذلك تسويد واقع الحال الراهن، بل تهدف أيضا إلى تصوير السيرة السوسولوجية للاندماج كنتاج إرادة سياسية، أو نتاج فعلٍ واعيٍ ومتحكم فيه من طرف الدولة وآلياتها» (Ibid, p. 8).

إن رهان الخطاب القائم حول الاندماج، الذي هو، في العمق، «رهان حول مشروعية وشكل تواجد وحضور المهاجر الوافد بشتى فئاته وأجياله، ليس سوى مرآة لقيمة الفرد كما تم اختزالها، بالكامل، في هويته الاجتماعية (الطبقيّة)، فهو خطاب غني بصور الاحتقار ولا يمكن إلا أن يكون كذلك، (...) على اعتبار أن كل الصراعات الهوياتية هي في الأصل صراعات تتمحور حول التصنيفات الطبقيّة، وحول المعايير التي تؤسس لهذه التصنيفات» (Ibid, pp. 13-14).

وكنتيجة لذلك، يبدو أن من هم أكثر وعيا واطلاعا على موضوع الاندماج، بحكم مواقعهم في المجتمع وتواجدهم في مختلف مجالاته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية، «ما زالوا ينظرون إلى الدعوات إلى الاندماج وغازرة الخطاب حوله، كعتاب على العجز عن الاندماج

وعلى عدم القدرة على تحقيقه بشكل كامل، وكنوع من العقاب على اندماج غير نهائي وغير شامل، ليبدو كنتشكيك واسع، ضمن شكل عام من الريبة، في كل تواجد يتم اعتباره أجنبيا، حتى ولو نُوج بالحصول على الجنسية الفرنسية» (Ibid)؛ كل ذلك، حتى يتم إنكار حقيقة الوضع القائم، والتي ليست سوى صورة من صور الصراع الطبقي، بين فئات تعتبر وضعها الاجتماعي نتاجا حتميا لقانون الانتقاء التاريخي، وتعمل على استدامة هذا الوضع بكافة الاستراتيجيات الظاهرة والمضمرة، وبين فئات أخرى تريد الانعتاق من كل ما من شأنه أن يديم أوضاعها السوسيو- الطبقيّة القائمة.

### خلاصة 1

لن يكون من المغالاة، إذن، اعتبار أن الإرث المفاهيمي الذي خلفته الخطابات المتلاحقة حول مفهوم الاندماج في السياق الفرنسي، ليس سوى خيال الظل لعلاقة القوى غير المتكافئة التي تتخبط فيها مختلف الهويات (هوية الذات وهوية الغير)، بهدف إعادة إنتاج نفس التصنيفات الطبقيّة التي يرتضيها الطرف المهيمن في الوضعية الهجروية، كما كان يرتضيها، من قبل، إبان المرحلة الاستعمارية، حيث يبدو الأمر، في النهاية، «عبارة عن حقل من الصراع حول احتكار سلطة صناعة وتفكيك المجموعات، أي احتكار تعريف الهويات (الإثنو- ثقافية ومن خلفها الهويات السوسيو- الطبقيّة) بالمعنى البدائي لهذه الكلمة، التي تعني رسم الحدود بخطوط مستقيمة، ومن تمّ (فصل هذه الفئة الاجتماعية عن تلك)، وفصل الداخل عن الخارج، ومملكة المقدس عن مملكة المدنس، وفصل التراب الوطني عن التراب الأجنبي (Emile Benveniste)» (1994, p. 14).

### 2. في أفق تدقيقٍ علمي لمفهوم الاندماج وتحقيق اندماج حقيقي

يتميز قاموس الاجتماعي والدلالة اللغوية بمحدوديتهما، حيث أنهما قابلان لاستنفاد صلاحيتهما، وهما دائما يرتبطان بسيرورة سمتها التآكل وانحسار الاستعمال والتجديد وإعادة الترميم، وكل هذا ينطبق على مصطلح الاندماج الذي يعتبر مصطلحا قديما، تمّ استخدامه في سياقات متعددة لتوصيف وضعيات متنوعة نسبيا، وعرف لحظات تألق وأقول، كما كان مرجعا بارزا في الفكر السوسبيولوجي، ففي السوسبيولوجيا يُعرّف جيدا ماذا يعني مجتمع أو جماعة مندمجين بشكل جيد،

ويتسمان بتماسك داخلي أو نقيض ذلك، كما يُعرف ماذا يعني الاندماج "كصيرورة" فردية، فهو يحيل إلى ذلك المآل الذي يؤول إليه الفرد والذي تساهم فيه مجموعة من العوامل، بعضها يتميز بطبيعة مادية موضوعية، وبعضها الآخر ذو طبيعة رمزية تتعالى على كافة المجتمع أو الجماعة موضوعي التساؤل، ليضفي عليهما هذا المآل ما يجعلهما يتميزان بروح وأسلوب خاصين بهما وبتماسكهما الداخلي (1994).

هكذا يصبح الاندماج حقيقة اجتماعية، وبالتالي حقيقة جماعية، حيث أن الاندماج الفردي يصبح شرطا لتحقيق اندماج الأجزاء في الكل، كما أنه كلما كانت القوة الدامجة لجماعة ما قوية، وكلما كان الاندماج الجماعي (لمجموعة من الأفراد) أكبر، كلما صار الاندماج في هذه الجماعة ضروريا وسهلا من طرف كل مكون من مكوناتها القديمة والجديدة (Ibid).

## 1.2. من أجل تدقيق علمي لمفهوم الاندماج

### 1.1.2. المفهوم من منظور قانون تحول المادة الطبيعية

في غياب مصطلح أفضل، يبدو أن «تبنى مصطلح اندماج وفق المعنى الدقيق لعلوم الطبيعة، يتسم بأفضلية مقارنة مع مصطلح من قبيل تماثل، حيث أن الاندماج، بهذا المعنى، يتطلب انصهار الفرد (Fusion) في المجموعة وليس ذوبانه وتحلله فيها (Dissolution)، على عكس التماثل الذي يكافؤ اختفاء الفرد والغائه بالكامل» (Ibid, p. 12).

إن الانصهار، في الغالب، لا ينتج عن تماس أو تدخل مباشر من نوع ما، وبالمعنى الاجتماعي لا ينتج عن عنف مباشر، وإنما هو نتيجة تحول طبيعي وتلقائي للتواجد في وسط يتميز بقدر معين من الخصائص الملائمة، والذي لا يؤدي، في النهاية، إلى فقدان الشيء لتركيبته الأصلية، وإنما إلى إنتاج وحدة متماسكة جديدة من نفس الطبيعة المادية الأصلية لهذا الشيء، كما يحدث لانصهار قطعة ثلج، مثلا، عند تعرضها لدرجة معينة من الحرارة، على عكس الذوبان أو التحلل الذي ينتج عن تماس واصطدام مباشرين بين عنصرين متمايزين، حيث يؤدي ذلك إلى الإلغاء الكامل لعنصر ما وتحوله إلى طبيعة مغايرة، كما تتحول قطعة سكر ذي الطبيعة الصلبة، مثلا، إلى محلول ذي طبيعة مغايرة سائلة عند وضعها داخل كأس ماء؛ بهذا المعنى، يكون الاندماج باعتباره مرادفا للانصهار، تحصيل حاصل لأشياء أو لتفاعلات تتم بشكل تلقائي، دون أي نوع

من أنواع التصادم أو العنف، مما يجعله فعلا تلقائيا وطبيعيًا، وصيرورة يستلزم الوصول إليها وقتا معينا وخصائص موضوعية، بعيدا عن أي تدخل مباشر أو عنف ممارس: «إنه أثر جانبي لأفعال تتم لغايات أخرى» (Ibid, p. 13).

## 2.1.2. المفهوم من منظور سوسيولوجيا الهجرة لعبد المالك الصياد

إذا كان الاندماج يتم، أيضا، عبر تماسك المجموعة في حد ذاتها، وليس فقط عبر اندماج بعض الأفراد الغريباء فيها، فإنه لا غرابة أن يكون الخطاب حول هذا الموضوع خطابا مشحونا بالدلالات الرمزية وبالمعاني الثانوية، حيث يبقى من المهم القيام بالمراجعة المستمرة له لتلمس طبيعته ومداه، على وجه التدقيق، لهذا فهو لا يمكن، حسب "الصياد" (1994)، أن يكون خطابا استشرافيا، بل ينبغي أن يتميز بالتأني في التعاطي مع الواقعة الاجتماعية، على اعتبار أن التحولات الاجتماعية الأكثر عمقا ينخرط فيها المجتمع بكل مكوناته، وهي تستلزم دائما وقتا لاكتمال صورتها، وحتى يتم ذلك يبقى المجتمع غارقا في جهله النسبي، وفي حالة جماعية من العمى وفقدان البصيرة.

على هذا الأساس، سيؤدي تحليل عملية الاندماج إلى «مساءلة السيرورة الهجروية في شموليتها، بمعنى مساءلة كامل المسار الذي قطعه المهاجر وليس فقط مآله (أي صيرورته)، وانطلاقا من ذلك يمكن القول بأن الحديث عن الاندماج ينبغي أن يبتدئ من اللحظة التي يغادر فيها المهاجر بلده الأصلي، وحتى قبل ذلك، لأن هذه الفترة المنسية قد تكتنز مظهرا من مظاهر اندماجه أو عدم اندماجه، كمدى اندماجه في سوق الشغل وفي المنظومة الاقتصادية الأصلية التي كان ينتمي إليها، مثلا.

(...) إن هذا المستوى الأول للاندماج الذي لا يُهتم به، يتحكم في مختلف أشكال الاندماج الأخرى التي لا يُكفَّ عن الحديث عنها، فهو المسؤول عن نشوئها ولا يمكن، في النهاية، الحديث عنها دون أخذ هذا المستوى بعين الاعتبار» (Ibid, pp. 12-13).

## 2.2. في أفق تحقيق اندماج حقيقي

### 1.2.2. أهمية تخليق الخطابات المرتبطة بحقوق المهاجرين

ليس هناك طريقة أفضل لنزع الطابع السياسي عن مشكل اجتماعي سوى جعله موضوعا تقنيا (تقننة (Technicisation))، أو جعل تناوله يصبح منحصرًا في الحقل الأخلاقي، حيث أن «هذا التخليق (Moralisation) لن يكون سوى أفضل أشكال تحييد الصبغة السياسية عن الاجتماعي» (Ibid, p. 14).

على هذا الأساس، «ستتکامل الأخلاق والسياسة، في سياق الحديث عن الهجرة الوافدة، من أجل ترجمة حقوق المهاجرين المنصوص عليها على أرض الواقع، والتي لا يستطيعون نيلها، لكونهم ليسوا مواطنين أصليين، في خضم تفاوضٍ وتجاوزٍ أُجبروا عليهما مع الطرف الآخر، حيث أن هذا الأخير بدل أن يقوم بالاعتراف بحقوق الشركاء البديهيّة، يحرص على تقديمها في صيغة واجبات أُجبر على القيام بها، أو في صيغة فعل جود وكرم من جانب واحد، ففي الواقع وبمنطق محاسباتي، حتى لو كان يتم دفع نفس الثمن مقابل هذه الحقوق من طرف المهاجرين، فإن هذا الثمن يأخذ مظهرًا آخر بمجرد أن يصبح التداول فيه يتم بمعزل عن القاعدة التعاقدية، والتي بموجبها يتم ضمان الحقوق بشكل قانوني، وليس بمنطق الجود والكرم (والصدقة)» (Ibid).

### 2.2.2. ضرورة تغيير النظرة إلى الهجرة الوافدة وإلى كيفية تحقيق اندماج المهاجرين

حينما نكون في سياق الهجرة الوافدة، فإن جميع الظروف التي رافقت المهاجر الوافد وجميع مراحل تواجده تكون موضوعا لفهم عملية اندماجه، التي تبقى عملية غير مرئية ومتوارية، وغير معن عنها، وشبيهة بتنشئة اجتماعية ثانية حقيقية، فهي تتمظهر، حسب "الصيد" (1994)، من خلال الاستتبات والتراكم المستمرين واليوميين لأشياء بسيطة لا يُنتبه إليها، في أغلب الأحيان، والتي تبقى دون إيجاد حل جذري لها.

انطلاقًا من ذلك، يجب تغيير النظرة إلى الهجرة الوافدة لارتباطها بمجموعة من الظواهر الأخرى المصاحبة لها، ففهمها يرتبط أولاً بفهم ظاهرة الهجرة في شموليتها، كما يرتبط، أيضا، بما يؤثر في مظهراتها كالعائلة والدولة، وأيضا بالسياق العام الذي تتم فيه والمتعلق بأزمة الشغل وآثارها

على موضوع الهجرة، بشكل عام، كل ذلك ينبغي استحضاره للوقوف عند مكامن العجلة والتخبط في تحقيق عملية الاندماج، والتي قد تؤدي إلى نتائج معكوسة.

إن تحقيق اندماج حقيقي يستلزم عدم الجري خلف اندماج وفق القالب الذي يريده هذا الفاعل أو ذاك، بل ينبغي أن يتحقق انطلاقا من أفعال تتم لغايات أخرى وكننتيجة جانبية لها، حيث ينبغي الكف عن تقديمها، فقط، كدعاية اجتماعية، كما دأب الرأي العام على تقديمها في الغالب، فكما يكون النوم نتيجة جانبية للعدّ، ينبغي أن لا ننتظر أن يكون الاندماج نتيجة مباشرة لما يُحكى أنه مرصود لتحقيق هذا الاندماج (Ibid, p. 13).

## خلاصة 2

على نحو عام، يبدو أن الاعتراف الجماعي بالمفهوم العلمي للاندماج، باعتباره انصهارا لتقائيا للفرد في وضعية جديدة، تمليه خصائصها الموضوعية، سواء كان هذا الفرد مهاجرا وافدا أو مواطنا أصليا، والعمل على استحضار كافة العوامل والفترات التي تؤثر في سيرورة الاندماج، بالإضافة إلى تخليق مختلف الخطابات المتداولة حول هذا الموضوع، عبر نزع طابعها السياسي والإثني- إيديولوجي، من شأنه المساهمة في تحقيق اندماج حقيقي لمن هم موضوع له، خصوصا إذا ما ترافق هذا الأمر بنوع من اليقظة الإبيستيمولوجية، التي تعمل على المراجعة المستمرة للدلالات الثانوية لهذا المفهوم، بما يجعل المهتمين به يقبلون، في النهاية، أن الاندماج يبقى «نوعا من السيرورات التي لا يمكن الحديث سريعا عن نجاحها أو فشلها: (...) إنه سيرورة مستمرة لا يمكن تحديد بدايتها ولا مآلها، ولا تلمس مسار تشكلها، فهو مسار (انصهار) يخترق كل لحظات الحياة وكل أشكال الفعل والوجود» (Ibid).

## خاتمة

إجمالا، يتبين من خلال إعادة الحفر في مقال «ما الاندماج؟» لعبد المالك الصياد، أن مفهوم الاندماج يتميز بتعدد دلالاته، وبارتباطه بمعاني قديمة استُعملت، اجتماعيا، بحسب طبيعة السياق الذي أنتجت فيه، مما جعل الخطاب حوله يبدو خطابا غير واقعي، بل يريد إنتاج أثر في الواقع، ولا يستند إلى معرفة علمية خالصة، بل يتأسس على العقيدة الهوياتية وأحكام القيمة التي يتم تحويلها صوب دائرة العلم، حيث أن تماسكه يقوم، أساسا، على المزج بين مبدئين متعارضين:

أولهما، معلن ويكتسي صبغة علمية، وثانيتها، غير معلن ويقدم إجابات شمولية وأحادية، غالبا ما تُخفي خلفها رهانات إثنو- إيديولوجية وسوسيو- طبقية عميقة.

استنادا إلى ذلك، يتبين أن الحكم على اندماج المهاجرين انطلاقا من النتيجة المثالية التي تُرسم له، يمنع من تلمس واقعه الحقيقي وما يواكبه من مقاومة وصراع حول المنافع المادية والرمزية، ومن إرباكٍ ومساءلةٍ لمنظومة التراتبية الطبقية القائمة، فالدلالة الاجتماعية والسياسية المثالية التي تقترن بالاندماج، لا تسعى فقط إلى تعظيم التاريخ الماضي لهذه العملية، بل تهدف أيضا إلى تصوير السيرة السوسولوجية للاندماج كنتاج إرادة سياسية، أو نتاج فعلٍ وإعٍ ومتحكم فيه من طرف الدولة وآلياتها.

وعلى نحو عام، يمكن استنتاج أن تناول هذا الموضوع، في السياق الفرنسي، ارتبط، أساسا، بالصراع حول احتكار سلطة صناعة وتفكيك المجموعات والهويات، بالشكل الذي يطمح من خلاله الطرف المهيمن في الوضعية الهجورية، على استدامة العلاقات الاجتماعية القائمة، وفق منطق غير متكافئٍ بينه وبين أطراف أخرى تحاول الانعتاق من التراكم التاريخي لواقع الخضوع والهيمنة، حيث يتضح، في النهاية، أن خطاب الاندماج يتم توجيهه بشكل يجعله يقتصر فقط على مراجعة مدى تحقيق الاندماج من طرف الفرد الوافد، دون أن يتم التساؤل، مثلا، عن مشروعية الدمج القسري لهذا الفرد أو للمجموعة التي يرتبط بها في طبقة اجتماعية بعينها دون أخرى.

إن نزع الأئنة الهوياتية والإثنية لهذا الخطاب، سيُمكن، لا محالة، من نقل تناول موضوع الاندماج من الدائرة الثقافية والهوياتية المصطنعة، إلى الدائرة الحقيقية التي ينبغي أن يُتناول فيها، وهي دائرة العلاقات السوسيو- طبقية القائمة بين المستقبلين والوافدين في الوضعية الهجورية، ومدى عدالتها وتناغمها مع قيم الجمهورية الفرنسية، خصوصا في سياق العولمة، الذي أصبح فيه التنافس بين الأفراد يقوم على أساس الكفاءة والفعالية والمردودية الإنتاجية، لا على أساس الانتماء الإثني أو التاريخي لمنطقة أو ساكنة أصلية، حيث سيُمكن، حينها، أن يصطبغ هذا الموضوع بالروح الحقوقية والقانونية التي يستلزمها، بدل أي مسوغات إثنو- هوياتية جانبية.

ختاماً، يبدو أن تناول موضوع اندماج المهاجرين الوافدين من زاوية حقوقية وقانونية صرفة، خصوصاً في سياق العولمة، سيشكل إضافة نوعية للنقاشات المتداولة حوله في السياق الفرنسي وفي غيره من السياقات الأخرى، كما سيمنح من نزع الهالة الإثنية التي حجبت مجموعة من المعطيات الموضوعية المرتبطة به، والتي أريد لها أن تبقى متوارية.

### قائمة المراجع

1. بنعبد العالي، عبد السلام. (2014). في الفكر المعاصر، الأعمال، الجزء الثالث، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، 389 ص.
2. BEAUD, Stéphane et NOIRIEL, Gérard. (1990). Penser l'intégration des Immigrés. In: *Hommes et Migrations*, (1133), Mantes La-Jolie, 43-53. <https://doi.org/10.3406/homig.1990.1487>
3. FERRY, Luc et RENAUT, Alain. (1985). *Essais sur l'anti-humanisme contemporain*, La Pensée 68, Paris, Gallimard, 234 p.
4. GAILLARD ANNE, Marie. (1997). Assimilation, insertion, intégration, adaptation: un état des connaissances. In: *Hommes et Migrations*, (1209), D'Alsace et d'ailleurs, 119-130. <https://doi.org/10.3406/homig.1997.3030>
5. LOCHAK, Danièle. (2006) L'intégration comme injonction: Enjeux idéologiques et politiques liés à l'immigration. *Cultures & Conflits*, (64), 131-147. <https://doi.org/10.4000/conflits.2136>
6. MENDJELLI, Rachid. (1993). L'intégration comme ressource politique, nouvel électorat et/ou nouvelles élites. In: *Horizons Maghrébins - Le droit à la mémoire*, (20-21), Élités maghrébines de France. Politiques, associatives, religieuses, scientifiques, artistiques, 8-20. <https://doi.org/10.3406/horma.1993.1160>
7. SAYAD, Abdelmalek. (1994). Qu'est-ce que l'intégration ?. In: *Hommes et Migrations*, (1182). Pour une éthique de l'intégration. Extraits du colloque de l'ADATE Saint-Martin-d'Hères, 8-14. <https://doi.org/10.3406/homig.1994.2341>